عصر الدولة الوطاسية

بـ التاريخ الحضاري (ج1)

1ـ نظم الدولـــــة:

أفادنا حسن الوزان كثيرا عن نظم الدولة الوطاسية؛ وقد ذكر أنه كان يعاون السلطان في إدارة الدولة مستشارا رئيسا يعينه وسط أكابر رجال دولته، وكان يخصص له ثلث دخل الدولة. ويعين معه آخر يتولى رفقة الملك والكتابة الخاصة له وإدارة خزينة السلطان. ويعين أيضا ضباط حرسه الخاص المؤلف من كتيبة الفرسان. ويعين أيضا قضاة الدولة وجباتها. ويعين للقصر قيّما على نفقاته، وهو الذي يشرف على تزويد الجيش بالمؤونة، ولعله يتبعه مشرف الإسطبلات الملكية المتوفرة على دواب الحمل الكثيرة الممونة للجيش.

ويتولى تنفيذ أوامر وأحكام السلطان قائد الحرس الخاص، والذي من مهامه أيضا الإشراف على موظفي الدولة المكلفين بأحكام القضاء والشرطة المكلفة بتطبيق العقوبات. وكان أغلب خدمة القصر من السودان، وبينهن مسيحيات من الإسبان والبرتغال. وللقصر **حاجبه**، الذي يصحب السلطان في كل تحركاته، ويدخل الناس عليه، ويرشدهم إلى مجالسهم، ويضبط ترتيبهم في الكلام. وكان يتولى الإشراف على الحفلات **المزوار**.

وكان السلطان إذا تحرك خارج المدينة نصب له **مشور** من ثوب سميك مربع الشكل، طول كل من جوانبه حوالي خمسة وثلاثين مترا، وفي كل ركن من أركانه برج تعلوه قبة مذهبة، وفي كل من جوانبه باب يحرسه الخصيان. منصوب في وسطه خيام إحداها غرفة نوم السلطان، وينصب خارج المشور خيام الضباط والندماء، وبعدها خيام بقية الحاشية. وتنزل دواب القافلة بعيدا عن المعسكرات، حيث تنصب دكاكين الجزارة والبقالة وبقية الباعة والصناع المرافقين للجيش. وكان حرس المشور غير مسلحين.

وكان الوطاسيون معترفون بالسيادة العثمانية الرمزية، ينقشون اسم الخليفة على السكة، ولذا ألغوا عنهم لقب أمير المؤمنين، الذي تلقب به المرينيون منذ عهد أبي الحسن، واكتفوا بلقب **السلطان**، الذي أحدثه لأول مرة بالمغرب المنصور المريني.

وكانت **ولاية العهد** تسري بتعيين السلطان من يخلفه من أبنائه أو إخوته؛ وقد يتعرض السلطان للخلع كما تعرض له أبو حسون الباديسي.

- **هياكل الدولـــــة**:

أما **الوزارة** فلم يكن نظامها ليختلف عن نظام المرينيين، غير أنه من الملاحظ أنهم استوزروا أقربائهم، من الأبناء والإخوة وأبناء العم، كما لم يشهد عصرهم وزراء صقالبة كما في عهد المرينيين. وكانت مهامهم موزعة بين الإدارة وقيادة الجيش.

أما **القضاء** فقد تغير نظامه اقتباسا من النظم العثمانية؛ إذ أصبحت سلطة القاضي منحصرة في الشؤون الدينية، وأحيلت القضايا المدنية والجنائية على الولاة، فاستتبع ذلك تقلص سلطانهم.

كان القاضي الشرعي يعضده **قا□ي التوثيق** المكلف بشؤون الزواج والطلاق والتحقيق في الشهادات، ولم يكن يتقاضى راتبا رسميا؛ لأنه كان في الغالب يشتغل بوظائف أخرى كالتدريس والخطبة. وكان **المفتي** بمثابة قاضي الاستئناف، المرجوع إليه في المشورة في المسائل القانونية أو في إعادة النظر في حكم قضائي. وكان للقاضي **نواب** في المدن الكبرى؛ ومن أشهر قضاتهم عبد الواحد الونشريسي (ت955هـ).

وانحط نظام **الحسبة** في هذا العهد، وأوكلت للأميين، وصارت موضع مساومة عليها. وكان محتسب فاس جابيا في نفس الوقت، ومن اختصاصاته مراقبة الأسعار والمجزرة ومواد الاستهلاك.

أما **العمال**، فقد اتسعت سلطتهم على حساب سلطة القضاة، وكانت **الأقاليم** في ذلك العصر سبعا:

أ- تامسنا ومن مدنها الرباط وأنفا.

ب- فاس وتمتد إلى سلا غربا، ومن مدنها سلا، زرهون والمعمورة. وكان يمتاز بجودة أراضيه الزراعية، وبه عدد من قبائل العرب المشتغلة بالزراعة.

ت- أزغار وهي أصغرها، ومن مدنها القصر الكبير. وكان يمد فاسا وغيرها بالأقوات والماشية والجياد.

ث- الهبط، وتكون منطقة في باقي الغرب الحالية مع منطقة غمارة، ومن مدنها: طنجة وتطوان وأصيلا والبصرة. واختص بكثرة المياه والمدن العتيقة.

ج- الريف، ومن مدنها بادس وترغة.

ح- الحوز، وهو أحواز فاس وتامسنا الجنوبية، من مدنها صفرو وتازة.

خ- الأجزاء الشرقية العليا، وهو أفقر الأقاليم، من مدنه مليلية وتازوطا.

وكانت اختصاصات **العمال** تشمل الإدارة والعسكرية والقضاء المدني والجباية، كاستخلاص الذعائر، ويؤدي له التجار والصناع ضريبة عن كل سجين معتقل. وكان يشرف على صاحب

الشرطة. واستثنيت العاصمة من ذلك، إذ كان لها أربع من رجال الشرطة، يتولون السهر على الأمن ليلا ونهارا، ولا يتلقون رواتب، إنما كانوا يحصلون من المعتقلين ضرائب حسب حجم عقوبتهم ومدتها، وقد كان لقصبة فاس صاحب شرطة خاص.

وظهر لقب **القائد** الممنوح لبعض الولاة، خاصة بالنسبة لولاة المراكز التابعة للعمال، وهو اقتباس عثماني، ولم يعرف لقب الباشا إلا في العهد السعدي.

أما **الجيش**؛ فكان قادته يدعون بقواد الرحى، كان يقطعهم السلطان حصنا أو قريتين يكون خراجهما موردا لهم، وللجنود الذين جندوهم، ينفقون عليهم في الحرب والسلم، إذ كانوا جنودا نظاميون. وكان الأسرى المسيحيون يقودون الجمال الحاملة للمؤن والذخيرة.

ويتألف الجيش النظامي من ستة آلاف فارس من المرتزقة، بالإضافة إلى خمسمائة بندقي، وخمسمائة قواس، وغير المحاربين المشتغلين في لوازم الجيش. وله فرقة من الطبالة حاملين طبولا عظيمة الحجم من النحاس على جيادهم. وفي هذا العهد بدأ استعمال المدافع والبنادق.

أما **مالية** الدولة؛ فكان القيم عليها جباة الدولة، الذين يستخلصون الضرائب ووضع حساباتها للسلطان. وكان بالقصر خمسون فارسا مهمتهم الإخبار بالضرائب المقررة. أما **مكوس** الأبواب فتولاها شخص يشتري حق استخلاص المكس من السلطان في مكان معين، مقابل مال معلوم، وقد يشتري أمكاس المغرب كله شخص واحد؛ وكثيرا ما تعرض هؤلاء للمصادرة بعد عجزهم عن الوفاء.

وكان **متولي الجباية** بفاس هو المحتسب، عليه أن يؤدي ثلاثين دينارا يوميا للخزينة، ويقيم على أبواب المدينة من يتولون جباية الداخل من البضائع. وكانت المواد الاستهلاكية الرئيسة كالقمح والحطب والدجاج والبقر معفاة من الضرائب، بينما يؤدى عن الكباش المذبوحة بالمجزرة مال معلوم، وكذا عن الثياب المستوردة.

2- المجتـــمع:

كان **المجتمع** المغربي خليطا بين بربر وعرب وتجمعات أندلسية طارئة. أما **العرب** فقد وصف حالهم حسن الوزان بالؤس والفقر وغلبة البداوة؛ وقد استقر بعضهم بسهول الهبط والحوز، واشتغل بعضهم بالزراعة والتجارة في المواشي خاصة الإبل والخيل، هذه التي كان يباع كثير منها في أوربا، واشتغل آخرون بصيد الوعل وحمار الوحش والنعام والمها واللمط.

وامتاز عرب الصحراء بصحبة نسائهم في حروبهم، وبقرض الشعر في مختلف أغراضه. وكان أكثر بدوهم يعيشون في المناطق الشرقية أو الغربية للمغرب، ولم تنتشر الخيام في المناطق البربرية إلا في السهول الغربية بدكالة والشاوية، حيث انصهرت القبائل العربية والبربرية، وكان التأثير

العربي أقوى فيما بعد. غير أن سكان القرى والضواحي قد عانوا من ظلم الأعراب المعتدين على مواشيهم وزروعهم ومرهقيهم بصنوف الضرائب.

وقد تعرضت **مدن الغرب** والحوز وتادلا للتدمير في هذا العهد، كتيط والمدينة وأفزة وتنزة، ونواحي أنفا. وعرفت تامسنا منذ العهد المريني نزولا لقبائل زناتة وهوارة، حتى ازداد عددهم في عهد الوطاسيين فقدرهم الوزان بنحو 260ألف شخص بين فارس وراجل.

ونزل عدد كبير من **مهاجرة الأندلس** مدن فاس وتطوان وسلا والرباط؛ وقد حظي الشرفاء منهم كالعراقيين والصقليين والقادريين بمكانة عظيمة لدى محمد الشيخ الذي آواهم بفاس. وكان **لليهود** عدد أيضا في فاس حيث قدرهم بعضهم في هذه الفترة بنحو أربعة آلاف.

وكان سكان **الريف** يسكنون مناطق فقيرة ومساكنهم متواضعة، باستثناء أهل الساحل الذين كانوا أحسن حالا، واشتهرت أراضيهم بوفرة أشجار التين والليمون.

وأما **مراكش** التي كانت أعظم مدن المغرب زمن المرابطين والموحدين، فقد تناقص عمرانها الثلثين، ولم يبقى من ذلك إلا اثنى عشر قصرا من بناء المنصور الموحدي، وتحولت الخزانة الموحدية العظيمة إلى محاضن وقنن، وصار بستان القصر السلطاني مستودعا للأزبال. وأقفرت مدينة **الرباط** المزدهرة في عهد المنصور، وأصبح لا يتجاوز عدد مساكنها الأربعمائة.

وفقدت **فاس** الكثير من نشاطها القديم، وإن لم تتغير حالها في العموم، فقد تناقصت المارستانات، وقل الاعتناء بها وفيها، وضعفت حال فنادقها.

واختلفت **أعمار** الناس فإذ لم يزد أعمار أهل الحضر عن الخامسة والستين أو السبعين، كانت أعمار أهل الجبال تزيد على الثمانين.

أما عن **اللباس**؛ فذكر عن نساء **حاحا** أنهن كن في أغلبهن سافرات الوجوه، وكان العزاب يحلقون لحاهم ثم يرسلونها إذا تزوجوا. وكان أهلها **يلبسون** الصوف يلفون به أجسامهم، ويتعممون به، ولم يعرفوا نسج الكتان. وكانت العربيات يلبسن قميصا أسود ذا كمين عريضين، يعلوه رداء من نفس الثوب، يلففن به أجسامهن، يتدلى طرفاه على الكتفين، ويلتثمن بثوب مثقوب من جهة العينين، ويتحلين بالفضة من أقراط وخواتم وأساور. وكان سكان جزولة يتزينون بخناجر معقوفة وعريضة ماضية الحدين.

وكان أعيان فاس يرتدون في الشتاء ثيابا من الملف المستورد، ولباسهم معطف يلتف بالجسم ذو أكمام نصفية، وفوق المعطف جبة مخيطة من الأمام وفوقها برنس، ويغطون رؤوسهم بطاقية عليها عمامة تمر تحت الذقن، ولا يلبسون الجوارب. وعامة الناس تلبس المعطف والبرنس من غير جبة ولا عمامة غير الطاقية. أما نساءهم فيلبسن في الشتاء فساتين عريضة الأكمام مخيطة من أمام،

وسراويل تغطي حتى الساقين، ويتلفعن بإزار (حايك) يغطي رأسهن وكل جسمهن، ويغطين وجوههن بلثام، ويتحلين بالذهب والأحجار الكريمة، ويتحلى نساء العامة بالفضة.

ويبق حال **المرأة** مجهولا، غير أنه ذكر لهن دورا سياسيا بفاس، **كزهور الوطاسية** التي تولت تسيير فاس بعد تنحية الجوطي، يعاونها القائد الشجيري، إلى أن تولى محمد الشيخ الأمر.

أما **أعيادهم؛** ففضلا على الأعياد الإسلامية كان أهل فاس يحتفلون بمولد المسيح، ويطبخون ليلته طعاما خاصا. وفي اليوم الأول من السنة يتقنع الأطفال بقناع، ويطوفون مرددين بعض الأناشيد، طالبين بعض الفواكه من المحسنين. ويقيمون حفلة السنية عند بروز الأسنان الأولى للطفل، واعتبرها الوزان من العوائد المسيحية القديمة.

وكانت جزولة تقيم موسما بمناسبة **المولد النبوي** يدوم شهرين، يقدم فيه الطعام للغرباء، وتضع فيه الحرب أوزارها، وينصب فيه الباعة الخيام، ويقتل فيه اللصوص حالا. وكان طلبة المدارس بفاس يحتفلون كل سنة احتفالا خاصا بهم، يدعون أصدقاءهم ويخرجون إلى ظاهر المدينة مصحوبين بالموسيقيين.

وكان **الاحتفال بالزواج** في فاس يتم بأن يصحب والد الزوج عدلين وعددا من أصدقائه إلى المسجد، ويحضر الخطيبان ويتم كتابة العقد أمامهما، وإذا كان الزوج ضعيف الحال يقدم كصداق نحو ثلاثين دينارا معجلة، وجارية سوداء، وقطعة ثوب من حرير وكتان، ومناديل من حرير للرأس. وتقضي العادة أن يهدي ثلاثة قفاطين، وثلاثة فساتين، وعدة أقمصة، ونعلا، وأغطية للفرش مزخرفة، ووسائد، وثمانية فرش، وأربع وسائد مطرزة توضع إلى جانب الصوانين، بالاضافة إلى زربية، وثلاثة أغطية لسرير النوم، وأشياء أخرى. ويتحمل والد الزوجة أضعافا مضاعفة. ولهم في تشييع الزوجة إلى منزلها الجديد عادات خاصة. ويقام بمناسبة العرس ثلاث ولائم، أولها ليلة قدوم الزوجة، والثانية تقدم للنساء عشاء في اليوم الموالي، والثالثة في سابع يوم الزفاف، ويحضر فيها والد الزوجة وأقاربها، حيث يقدم أبوها هدية مكونة من الحلوى وعدد من الخرفان. أما العريس فيشتري سمكا ويقدمه إلى أمه لتضعه عند أقدام العروس تيمنا.

وأما والد العروس فيقيم مأدبتين إحداهما ليلة يوم زفافها، وفي اليوم الموالي تحضر الماشطات لتزيينها وتخضيبها، وتجلس على منصة عالية، وتقدم المأدبة الثانية.

أما **الإعذار** فيحضر فيها حلاق يصحبه مساعده، ويحضر أصدقاء الأب الذي يقيم مادبة بعد أن يقدم كل منهم هدية إلى الحلاق، وهي نحو دينار أو أكثر، يلصق بخد مساعده الذي ينادي باسم المهدي ويشكره، ثم يختن الغلام، ويتابع الحفل موسيقة ورقصا، ويتناول الجميع طعام الوليمة.

أما **الشعر والغناء؛** فنما في هذا العهد **الزجل** الذي أصبح يسمى بالملحون، ويطلق عليه أيضا لفظ "الكلام"، ولغته في العموم راقية مزيج من الفصحى والعامية. و وردنا منه قصيدة الحربي لابن عبود

الفاسي في وصف معركة أبي عقبة، وقد أنشدت بين يدي أحمد الوطاسي، ووضع للشاعر مكانا لإنشادها يوم عيد المولد بمسيد سيدي فرج بسوق الحناء بفاس. وكان أكثر شعراء الملحون من أهل تافيلالت. وكان مجال الرقص والموسيقى في الحفلات أوسع وأنشط مما هو الآن في أوساط المجتمع المغربي، وكان دور المغنين والراقصين أبرز من دور آلات الطرب التي كانت بسيطة لا تعدو نايات وطبولا أو دفوفا.

يتبع ...